جامع المنصوري في جبلة
إعادة تأريخ وقراءة تاريخ

د. هلا أحمد أصلان[1]

الملخص

يُعدّ جامع المنصوري أحد أهم الشواهد على التاريخ الإسلامي لمدينة جبلة على الساحل السوري، إذ يتميز عن الأبنية التاريخية والأثرية القائمة حتى اليوم في سورية جميعها باحتوائه على ثمانيةِ نُقوشٍ كتابية زخرفية منحوتة على جدرانه، تعود بتاريخها إلى حقبٍ إسلاميةٍ متتاليةٍ.

تناول البحث دراسةً تاريخيةً عن الجامع الرسمي في جبلة، من ثُمَّ تسمية الجامع الذي يشتهر بعدة أسماء من بينها: الجامع الكبير، جامع المنصوري والجامع الجديد. كما تطرق البحث لدراسةً الوضع الراهن والإشكاليات التي يُعاني منها، وموقع الجامع بالنسبة إلى مخطط المدينة، فضلاً عن وصف معماري للصرح الأثري (المسقط- المداخل- ساحة الجامع- قاعة الصلاة- الواجهات الداخلية والخارجية- مئذنة الجامع)، مع دراسةٍ تحليليةٍ معماريةٍ، تطرّق البحث في نهايته للدور التثقيفي لجامع المنصوري في الحياة الثقافية في مدينة جبلة والمنطقة.

الكلمات مفتاحية: جامع المنصوري- جبلة القديمة- العمارة الإسلامية- مئذنة أيوبية- زخرفة كتابية- الحقبة المملوكية.

[1] كلية الهندسة المعمارية ، جامعة تشرين، سورية.

Al-Mansouri Mosque in Jableh
Re- date and reading history

Dr. Hala Asslan[(1)]

Abstract

Al-Mansouri Mosque is an important piece of historical evidence providing invaluable insights into the Islamic history of the city of Jableh on the Syrian coast. It is distinct from other historical and archaeological buildings that exist in present-day Syria. It contains eight inscriptions carved on its walls, dating back to successive Islamic periods.

The research included a historical study of this mosque in Jableh, including identification of its official name, which has been known under various names: the Great Mosque, Al-Mansouri Mosque, and New Mosque. The study also discussed the current structural condition of the mosque and its problems, the location of the mosque in relation to the city plan, as well as an architectural description of the site (the plan, entrances, mosque, prayer hall, interior and exterior facades, and minaret). The study also analyzed the educational role of Al-Mansouri Mosque in the cultural life of the city of Jableh.

Key words: Al-Mansouri- old city of Jableh- Islamic architecture- minaret ayyubid- inscription- mamluk period.

[(1)]Faculty of Architecture, Tishreen University, Syria.

أولاً: المقدمة:

يعدّ جامع المنصوري أحد أهم الشواهد على تاريخ مدينة جبلة الإسلامي. إذ يتميز عن الأبنية التاريخية والأثرية القائمة حتى اليوم في سورية جميعها. إذ يحتوي الجامع على ثماني زخارف كتابية منحوتة على جدرانه، تعود لحقبٍ إسلاميةٍ متتالية: أقدمها مؤرخة في مرحلة حكم بني عمار لمدينة جبلة في أثناء استقلالهم بإمارة طرابلس عن الخلافة الفاطمية في القاهرة، وكتابةٌ أُخرى تعود للعصر الأيوبي، فضلاً عن خمس كتابات مملوكية والثامنة معاصرة. بناءً عليه يمكننا التأكيد أنَ جامع المنصوري هو الشاهد المعماري الوحيد على كامل تاريخ مدينة جبلة الإسلامي.

ثانياً: هدف البحث:

هدف البحث إلى ترميم النقص في المكتبة المعمارية السورية، وتقديم دراسة علمية شاملة أول مرة عن تاريخ جامع المنصوري وعمارته أحد أهم الجوامع في مدينة جبلة القديمة وفي الساحل السوري، غير المدروس سابقاً. فضلاً عن إلقاء الضوء على بعض النقاط الإشكالية في تأريخ الصرح المعماري الأثري وإيضاحها، مع تحديد تاريخ بنائه الأساسي، وتقديم دراسة معمارية متكاملة لتوزع أحياز الجامع وواجهاته وفتحاته، مع تقييم الوضع الراهن والإشكاليات التي يُعاني منها المبنى، وتسليط الضوء على الدور التثقيفي له في الحياة الدينية في جبلة. في حين يتجلى هدف البحث وقيمته الأساسية بدراسة النقوش الزخرفية الكتابية في الجامع.

ثالثاً: دراسة تاريخية:

3-1 الجامع الرسمي في جبلة:

كان جامع المنصوري منذ إنشائه الجامع الرسمي للمدينة على مدى العصور. إنّ ما يُعزز اعتقادنا هذا: تذكر المصادر التاريخية تبعية مدينة جبلة سياسياً لإمارة طرابلس، في سنة 469هـ/1076م أُتبِعت في مرحلة حكم بني عمّار لها، كما تذكر أنَّ أمير طرابلس فخر المُلك بن عمّار قد أرسل في عام 494هـ/1101م العالم الديني ابن النَقار الحُميري إلى جبلة، حيث أُسنِدت إليه خطبة وصلاة الجمعة. إنَّ ما يدفعنا للاعتقاد بأنَ الجامع حيث كان ابن النَقار خطيباً وإماماً، هو الجامع المنصوري؛ وجود كتابة مؤرخة بعام 488هـ/1095علـى الواجهة الشرقية لجامع المنصوري، أي إنَ الجامع كان موجودا قبل عام 725هـ تاريخ زيارة المؤرخ الرحالة ابن بطوطة لمدينة جبلة، الذي أشار في رحلته المنشورة بعنوان: «تحفة النُظَار في غرائب الأمصار» إلى وجود جامع واحدٍ في المدينة. لا يمكن أن يكون الجامع المقصود جامع السلطان ابراهيم بن أدهم، إذ وصف ابن بطوطة المبنى المُقام على قبر الصوفي ابن أدهم بأنَه زاوية، ومن ثمّ، لم يكن قد اكتمل بناؤه في تلك الحقبة ليصبح جامعاً. كما أنّ المراجع والمصادر لم تذكر وجود أي جامع أو مسجد في المدينة في تلك الحقبة.

ما يدعم هذه الفرضية أيضاً عدم وجود أية آثار أو بقايا لمبنى يمكن أن يكون مسجداً قروسطياً ضمن حدود المدينة القديمة، أمّا المنشآت الدينية الأخرى التي لا تزال قائمةً في المدينة فقد أنشئت في سنواتٍ لاحقة لزيارة ابن بطوطة كزاوية عثمان 753هـ/1352م، ومسجد الحموي الذي بني سنة 799هـ/1396م.

3-2 تسمية الجامع:

يعرف الجامع المدروس بأسماء عدّة من بينها: الجامع الكبير، وجامع المنصوري والجامع الجديد.

الجامع الكبير وهي التسمية الأقدم، تعود (في الأغلب) إلى كون الجامع هو الجامع الرسمي في جبلة، أي الجامع التابع للدولة. أُسوةً بالجوامع الرسمية جميعها في المدن

الإسلامية في بلاد الشام كطرابلس وحلب ودمشق... حمل الجامع المدروس في جبلة اسم الجامع الكبير.

لتسمية الجامع بالمنصوري لدينا احتمالان: إمّا أن يكون الاسم مُشتقاً من الكتابة الأيوبية الموجودة أعلى باب قاعة الصلاة التي تشير إلى تجديد الجامع أيام السلطان الملك الناصر المؤيد المنصور المتوفي سنة 661هـ/1262. أو بحسب معلوماتٍ متداولة فإنَ اسم جامع المنصوري مشتقة من اسم نائب طرابلس، سيف الدين أرقطاي الناصري، الذي يظهر اسمه في كتابة محفورةٍ على الجدار الجنوبي لساحة الجامع، وتعود لعام 741هـ/1341م. لكن هذا احتمال أضعف من السابق، فكلمة المنصور أقرب إلى المنصوري من كلمة الناصري.

في حين أنَ اسم الجامع الجديد يعود ودون شك، لتجديد الصرح الديني المتضرر بعد الزلزال الذي ضرب المدينة سنة 1656م، في الحقبة العثمانية. تماماً مثلما يحمل الحمام المواجه له (حمام التصاوير) اسم الحمام الجديد.

رابعاً: الوضع الراهن:

4-1 موقع الجامع بالنسبة إلى مخطط المدينة:

يحتل الجامع قلب مدينة جبلة القديمة، ويشغل العقار رقم 88، من منطقة زقاق البحر في المخطط العقاري للمدينة القديمة. الجامع محاط بثلاثة أزقة مختلفة العرض، الأول يتوضع في الجهة الشرقية ويفصل بين الجامع وحمام التصاوير، يأخذ هذا الزقاق اسمه من اسم الجامع «زقاق المنصوري»، الثاني هو الجنوبي المتجه شرق-غرب باتجاه البحر لذلك يُعرف باسم « زقاق البحر»، والثالث شمالي.

زقاق المنصوري

الشكل (1) زقاق البحر في جبلة

4-2 الوصف المعماري:

4-2-1 إشكاليات الوضع الراهن:

مع قدم بنائه، فقد حافظ جامع المنصوري على حالةٍ معماريةٍ جيدة، باستثناء بعض التشققات والتصدعات في الجدار الجنوبي لقاعة الصلاة، وتزحزح بعض حجارة القبة. لكن بناء الجامع يعاني حالياً من مشكلات عدة، أهمها:

1. استخدام مئذنة الجامع كعنصر حمَالٍ للأسلاك الكهربائية واللوحات الدعائية مما يؤدي إلى زيادة تشقق حجارة المبنى وتصدعها.

الشكل(2): مئذنة جامع المنصوري.

الشكل (3): سوء استخدام الغرف الملحقة.

2. توظيف بعض قاعات الجامع لأغراض تجارية وسكنية، فضلاً عن استخدام صفائح الزنك لتغطية فتحات أبواب المحال على الواجهة الشرقية، مّما يسبب تلوثاً بصرياً لا يتماشى مع مواد البناء المستخدمة في بنائه.
3. أسهمت أعمال الترميم وإعادة التأهيل المتعاقبة لأقسام الجامع وكتاباته في إخفاء بعض الملامح المعمارية.

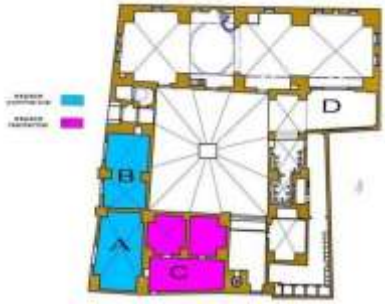

الشكل (4): مسقط جامع المنصوري في جبلة.

4-2-2 المسقط:

يتخذ مسقط الجامع شكل مضلعٍ، ويمتلك بوضعه الحالي أقسام عدّة مختلفة الوظيفة، منها ما هو ديني كقاعة الصلاة، خدمي (الغرف الملحقة، غرف الخدمات وقسم الوضوء). تتوزع هذه الأقسام بشكل محيطي حول ساحةٍ مركزيةٍ،

يتم الدخول إليها من مدخلين متعامدين.

4-2-3 المداخل:

يمتلك الجامع مدخلين، يتوضع الأول على واجهة الجامع الشمالية، ويمتاز بالبساطة، يعلوه قوس قليل الارتفاع. الثاني رئيس يتوضع على الواجهة الشرقية. باب الجامع بسيط دون زخرفة، مصنوع حديثاً من الخشب تحيط به مصطبتان، تعلوه كتابة حديثة تبدأ بالبسملة، نقش عليها سورة النور، الآية 36-37:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والأصال رجال لا تلهيهم، تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار﴾

صدق الله العظيم

يلي المدخل الرئيسي إيوان مسقوف بعقد متطاول. نجد على جداره الشمالي كتابتين تعودان للحقبة المملوكية.

عبارة عن مرسوم مؤرخ بسنة 883هـ/1478، بأبعاد (1,35*0,35م)، بخط نسخي مملوكي ثخين، بأحرف صغيرة متقاربة.

نص الكتابة:

- بسمله. لمَا حلَ ركابه العالي المولوي المالكي المخدومي الكافلي السيفي ازدمر مولانا ملك الأمراء كافل المملكة الشريفة الطرابلسية المحروسة أعز الله أنصاره زار

- السيد الجليل سيَدي ابراهيم بن أدهم أعاد الله (علينا) من بركاته والنظر في أحوال الرعية و كشف ظلاماتهم واستجلاب صالح أدعيتهم ف(ي) الصحائف الشريفة والكريمة تصور الناس وتضرَروا من رماية؟ القطن والقمح برسم أستدارية
- النيابة الشريفة على التجار والعامرية والمتسبَبين وغيرهم وسألوا صدقاته الكريمة في ابطالها عنهم لسطر هذه المثوبة في الصحائف الشريفة والكريمة ورسم أعز الله أنصاره بإبطال ذلك جميعه عنهم وأنَه يُنقش بذلك حجراً
- (يوضع) في الجامع المعمور بمدينة جبلة المحروسة لتضاعف الأدعية الصالحة دوام الأيام الشريفة والكريمة فامتثل ما رسم به بتأريخ مستهلَ رمضان المعظَم سنة ثلاث وثمانين وثمان مائة والحمد لله وحده.

نلحظ أنَ حروف الكتابة متقاربة ومغطاة بشكل سيء بالطلاء وغير واضحة. تشير الكتابة إلى زيارة نائب طرابلس لمدينة جبلة عام 883هـ/ 1478م، وحجه إلى ضريح المتصوف إبراهيم بن أدهم، مع ذكر الإجراءات والتدابير الإدارية المعلنة في أثناء تلك الزيارة.

الكتابة الثانية:

تتوضع على الجدار الشمالي لإيوان الدخول ضمن مستطيلٍ بأبعاد (1.40×0.40م)، ومع أنَ الكتابة غير مؤرخة، إلاّ أنَه يمكننا التأكيد اعتماداً على طريقة الكتابة وأسلوبها بأنّها تعود للحقبة المملوكية.

نص الكتابة:

- بسمله أمر بإنشائه...
- المقر الاشرف السيفي كافل المملكة الشريفة الطرابلسية
- أعز الله نصره... الفقير الى الله الطباخى. محمد... بتاريخ..(تاريخ غير مقروء).
- 4-3 كلمات

4-2-4 ساحة الجامع:

في العمارة الإسلامية، عادةً ما تؤدي ساحة الجامع دور موزع باتجاه الأقسام المختلفة، وفي جامع المنصوري حافظت الساحة على دورها هذا. تتخذ الساحة شكل المربع تقريباً، تتوضع في مركزها النواة الحاملة لهيكل السقف المعدني الذي أُضيف لتغطية الساحة، وهو مكون من تراكب صفائح من الزنك ويأخذ شكلاً هرمياً. لقد استخدم أُسلوب النواة المركزية الحاملة للسقف المعدني لتفادي استناد وزن التغطية الحديثة على جدران الجامع. بهدف إنارة الساحة، أضيفت نوافذ في الجزء العلوي للجدران بعد إضافة ما يزيد على 50 سم ارتفاع على جدران الجامع الأصلية.

إيوان الدخول، جامع المنصوري.

الشكل (5) ساحة جامع المنصوري.

4-2-5 قاعة الصلاة :

الشكل (6): حرم الصلاة.

تتخذ قاعة الصلاة شكل مستطيل يتجه شرق- غرب، بمساحة تقارب 115م^2، يعلو باب القاعة الرئيسة من الداخل شرفة من الخشب تستند على القوس المنكسر الممتد إلى ارتفاع الجدار.

تقسم القاعة فراغياً إلى أربعة أحياز، أهمها الحيز الرئيس الذي يحتوي على المحراب والمنبر، وهو مغطى بقبة تمتاز ببساطتها و قلة زخارفها ومقرنصاتها. تبدو حجارة هذه القبة منزاحة من مكانها الأصلي، قد يعود ذلك لتأثير الزلازل على المبنى.

لقد تم دعم الرقبة المثمنة التي تحمل القبة من الخارج، تم الانتقال من الشكل المُضلع للقاعة إلى الشكل المثمن للرقبة باستخدام مثلثاتٍ كرويةٍ (عقد الزاوية) في الزوايا الأربع.

الشكل (7): محراب جامع المنصوري ومنبره.

الشكل (8): شرفة، حرم الصلاة.

يوجد محراب الجامع ضمن الجدار الجنوبي لقاعة الصلاة، وقد جدّد حديثاً بإضافة ألواح من الرخام الأبيض والأصفر، نُقِشت عليها الزخارف الهندسية. نجد إلى الغرب من المحراب مباشرةً منبر الجامع على ارتفاع أربع درجاتٍ، جدّد في وقت متزامن مع تجديد المحراب.

4-2-6 الواجهات الداخلية:

الواجهة الجنوبية يمتلك الجدار الجنوبي للساحة ثلاثة أبواب تفتح جميعها على قاعة الصلاة، بهدف تفريغ الصالة من المصلين بأسرع وقت ممكن، وأيضاً لأن الأحياز التي تفتح عليها هذه الأبواب تستخدم لفعاليات عدّة منها الحلقات الدينية وقراءة القرآن ...

يوجد على هذا الجدار ثلاث كتابات:

-الكتابة الأولى أيوبية، دون تاريخ محدد. تتوضع أعلى باب قاعة الصلاة، نص الكتابة:

- بسم الله الرحمن الرحيم.....
- ..... الله الاسلام جدد هذا
- الجامع المبارك في أيام مولانا السلطان الملك الناصر المؤيد المنصور.... صلاح الدنيا والدين
- ..... الملك العزيز محمد بنظر الفقير إلى رحمة الله عبد العزيز ابن منصور بن قدامة

مع أنّ كون الكتابة غير مؤرخة وجزء منها غير واضح، لكنها تؤكد تجديد الجامع في مرحلة حكم الملك الناصر صلاح الدنيا والدين يوسف بن العزيز محمد بن الظاهر غازي بن الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، المتوفي سنة 661هـ/1262م. كان المسؤول عن أعمال التجديد شخص يدعى عبد العزيز بن منصور بن قدامة، الذي لم نجد له ترجمةً في المصادر التاريخية المؤرخة لتلك الحقبة، مع العلم أنّ جبلة كانت تابعة إدارياً لمملكة حلب في ذلك التاريخ.

الشكل (9) كتابة أيوبية، جامع المنصوري.

-الكتابة الثانية مملوكية، بتاريخ 741هـ/ 1341، تتوضع على الجدار الجنوبي للساحة، أعلى باب قاعة الصلاة، مؤلفة من خمسة أسطر بالخط النسخي. تؤكد أنَ أعمال الإنشاء قد تمت بإشراف أبو بكر ابن العديمي، نائب العليقة، في حين كان حاكم طرابلس سيف الدين أرقطايا بن عبد الله الناصري، أيام حكم السلطان المملوكي محمد بن قلاوون الصالحي.

نص الكتابة:

- بسم الله الرحمن الرحيم عمر هذا الرواق المبارك والنواحي في
- أيام مولانا السلطان الملك الناصر ناصر الدنيا والدين محمد بن قلاوون الصالحي
- خلد الله ملكه بإمارة المقر الأشرف السيفي أرقطاي الناصري نائب الفتوحات
- الطرابلسية أعز الله نصره. شاد الفقير إلى رحمة ربه أبو(sic) بكر بن العديمي
- ابن العليقة بتاريخ مستهل شوال سنة إحدى وأربعين وسبع مئة

الشكل(10) كتابة مملوكية 741 للهجرة.

الشكل (11) الكتابة المملوكية، جان سوفاجيه.
J.Sauvaget, «Décrets mamlouks», BEO, XII, nº 60, p. 50

الكتابة الثالثة: عبارة عن سطرين، ضمن مستطيل بأبعاد (1.65×1.30م) إلى الغرب من باب قاعة الصلاة، وهي غير واضحة وغير مقروءة، يمكننا القول: إنّها تبدأ ببسملة، وفي نهاية السطر الثاني نقرأ اسم محمد.

اعتماداً على شكل الأقواس المنكسرة الموجودة على الواجهتين الشرقية والشمالية للساحة، يمكننا التأكيد بأنَها قد أغلقت بجدرانٍ من الداخل لتُفصَلَ عن جسم الجامع لتستخدم استخدامها لأغراضٍ تجاريةٍ وسكنيةٍ.

كما نلحظ أنَ الفراغ (D)- المشار إليه في مخطط الجامع- قد حوّل من قاعة للدروس إلى قاعة للمغاسل تستخدم لأغراض الوضوء.

الشكل (12): الواجهة الشرقية والشمالية.

4-2-7 مئذنة الجامع:

درج المئذنة حلزوني، يستند إلى محور مركزي من جهة وعلى أضلاع القاعدة المربعة من جهة أخرى، يرتفع حتى قمة المئذنة. حيث تتوضع شرفة صغيرة محاطة بدرابزين من الخشب ومسقوفة بقبة صغيرة، وعلى كل جدار من جدران المئذنة توجد كوة لها شكل نجمة بثمانية فروعٍ. حجارة المئذنة منحوتة بدقة، تصغر أبعادها كلما ارتفعت باتجاه القمة. كما نجد على الجدار الجنوبي للمئذنة آثاراً واضحةً للترميم.

يأخذ مسقط المئذنة شكل مربع، ممّا دفع المؤرخ السويسري فان ماكس بيرشام للاعتقاد بأنَ المئذنة تعود لجرس نواقيس كنيسة تحولت إلى الجامع لاحقاً، وأنَ الجامع قد بنيَ على أنقاض كنيسة وحل مكانها. هذه الفرضية قابلة للنقض إذ إنَ توضع قاعة الصلاة واتجاهها يتماشى ويوازي اتجاه شوارع المدينة في مخططها الهلنستي (شرق-غرب). من هنا يمكننا القول: إنَ أول مرحلة في بناء الجامع كانت قاعة الصلاة: على اعتبار أنَ المصادر التاريخية صامتة تماماً في أحداث أخذ المسلمين لمدينة جبلة سنة 17 للهجرة بقيادة عبادة بن الصامت؛ نستطيع الافتراض بأنّهم قد أقاموا الصلاة بالقرب من كنيسة مدينة جبلة، تماماً كما أقاموا الصلاة بالقرب من كاتدرائية اللاذقية في تلك الحقبة، وهذا يتفق مع تموضع قاعة الصلاة بالنسبة إلى مخطط شوارع المدينة الهلنستي، ويمكن القول: إنَه مع توسع الجامع وزيادة أحيازه قد تمت الإفادة من برج النواقيس في الكنيسة كمئذنة، أي إنَ الجامع لم ينشأ فوق كنيسةٍ، ولا يمكن أن يكون إلا جامعاً بني قبل الوصول الصليبي إلى المنطقة.

الشكل (13): مئذنة جامع المنصوري.

فرضية ثانية قد تُطرح في منشأ مئذنة جامع المنصوري ذات المسقطِ المربع الشكل، بأنّها قد بُنيت في الحقبة الأيوبية؛ التي اشتهرت بمناراتها المربعة الشكل مثل منارة مدرسة الأنصارية في حلب.

الشكل (14): مئذنة المدرسة الأنصارية في حلب.

4-2-8 واجهات الجامع الخارجية:

الواجهة الغربية للجامع غير منظورة نتيجة ارتكاز دور السكن المجاورة عليها.

الواجهة الشرقية للجامع هي الأكثر أهمية والأكثر غنىً كونها الواجهة الرئيسة، وتمتلك زخرفين كتابيين أعلى إحدى نوافذها.

الكتابة الأولى: هي الكتابة التي تحمل تاريخ سنة 488هـ/1095م. تتوضع على الواجهة الرئيسة، مكونة من خمسة أسطر بالخط الكوفي دون نقط. نص الكتابة:

- بسم الله الرحمن الرحيم أمر بعمارة هذا المسجد والإنفاق
- عليه من ماله تقرباً إلى الله و طلب ثوابه أبو الفضل جعفر بن صدقة
- ابن أبي نوح رحمه الله في شهر شعبان سنة ثمان وثمنين وأربع مائة
- يوسف
- الله

تعود الكتابة لعام 488هـ، تتضمن أمراً بتعمير الجامع. أي إنَ بناء الجامع يعود إلى مرحلة حكم بنو عمار لمدينة جبلة في أثناء استقلالهم بإمارة طرابلس عن الخلافة الفاطمية في القاهرة، لكن لا يمكننا حقيقةً معرفة هل كان المقصود بالبناء هو الإنشاء أم إعادة التجديد والترميم لما هو موجود أصلاً؟ فكلمة (عمر) باللغة العربية تحتمل المعنيين. وبحسب الكتابة فقد قام أبو الفضل جعفر بن صدقة، بعمارة هذا الجامع ومن ثم الإنفاق على الجامع كوقف دائم لكننا لا نملك معلومات عن أهمية هذا الوقف ومقداره. ولكنه بالتأكيد أسهم في الحفاظ على الجامع. نقش اسم يوسف على طرف الكتابة، لا نملك معلومات عن اسم – يوسف– سواء أكان اسم الحرفي الذي نقش هذه الكتابة، أم إنَه اسم أضيف لاحقاً.

الشكل (15) كتابة بتاريخ 488 للهجرة.

الكتابة الثانية: عبارة عن مرسوم عائد للسنة 8540هـ/1450، تتوضع على الواجهة الشرقية، على عتبة نافذة، ضمن مستطيل بأبعاد (0.90×0.40م)، خمسة أسطر مكتوبة بخط نسخي، وبحجم متوسط. نص الكتابة:

- .....السلطان..... الظاهر
- لما كان بتأريخ سابع عشرين صفر سنة اربع وخمسين وثمان مائة برز مرسوم... شيخ
- الاسلام الشيخ.. برهان.. الدين قاضي القضاة السوبيني بابطال المظالم
- والمحدثات وابطال اجراء البيدريَة... الذي كان يأخذها قضاة.
- السوء حسب المراسيم الشريفة (2–3 كلمات) ملعون من يأخذها.

تشير هذه الكتابة، إلى مرسوم هدف إلى إلغاء عدد من الإجراءات الإدارية، من قِبل قاضي القُضاة برهان الدين إبراهيم الحموي السوبيني، قاضٍ شافعي في طرابلس، الذي كُلِفَ بقضاء طرابلس ثلاث مرات.

الواجهة الجنوبية: واجهة بسيطة بنوافذ عدّة، لكنها تتميز بالعناصر الموجودة في الزقاق الجنوبي المجاور للجامع، إذ يمتاز هذا الزقاق عن باقي أزقة المدينة القديمة لجبلة، بأنَه مقسم بصرياً بواسطة خمس دعامات على شكل أنصاف أقواس مدببة، تتكئ هذه الدعامات على الجدار الجنوبي لقاعة الصلاة من جهة، وعلى جدران المنازل المقابلة من جهة أخرى. تتلقى هذه الدعامات جزءاً من القوى الشاقولية المطبقة على الجدار– خاصةً بعد تفسخه.

يمتلك الزقاق الشرقي الذي يفصل جامع المنصوري عن حمام التصاوير، دعامة سادسةً مطابقة تماماً للدعامات الموجودة في الزقاق الجنوبي. تتنوّع أبعاد وأحجام وأشكال الحجارة المستخدمة في بناء هذه الأقواس وأحجامها وأشكالها بين: (0.27×0.48م؛ 0.23×0.48؛

0.25×0.54؛ 0.40×0.50م). من المحتمل أن تكون هذه الدعامات الست قد أضيفت إلى تدعيم الجدار الجنوبي لقاعة الصلاة، المتفسخ الذي يُعاني من التصدع بعد الزلزال الذي ضرب المدينة عام 1656م. اعتمدنا هذه النظرية بعد دراستنا لحمام التصاوير، ولِما ورد في الكتابة المنقوشة على بوابته:

عمر هذا الحمام المبارك بعد الهدم و بناه من حلال ماله...

فخر الأقران الحاج محمد المطرجي نتردار

شكيحاربان...ونحرا في غرة شهر رجب الفرد

من شهور سنة أربع وسبعين وألف

الشكل (16): بوابة جامع التصاوير.

أي إنّ هذا التدعيم يعود للحقبة العثمانية وليس لحقبٍ سابقة. فضلاً عن إثبات معماري يمكن أن يدعم نظريتنا هذه: هو الاختلاف في السماكات بين جدران الجامع (الجدار الجنوبي والجدار الشرقي في جزئه الجنوبي أكثر سماكة من باقي جدران الجامع، مّما يشير إلى مراحل بناء وتدعيمٍ مختلفة).

من الملاحظ أنَ نوافذ رقبة قبة قاعة الصلاة قد تم تصغير حجمها بهدف اختزال نقاط الضعف في القبة. هذا فضلاً عن الرقبة مدعمة من الخارج، بأسلوبٍ تنتقل فيه القوى الدافعة تدريجياً، مّما يساعد على تماسك الحجارة المُشكلة لهذه القبة.

خامساً: دراسة تحليلية معمارية:

بحسب المسقط المدروس والواجهات، يمكننا أن نضع الملحوظات الآتية:

المسقط: يمتد هذا الجامع على مساحة 490 م^2، ويمتاز باستقلالية الفراغات بحسب وظيفتها، قاعة الصلاة تحتل الجزء الجنوبي ومستقلة عن باقي الجامع، في حين أنَ الغرف الملحقة تشغل الزاوية الشمالية– الشرقية، الخدمات تشغل الجانب الغربي من الجامع، وهذه الفعاليات جميعها تتوزع حول ساحة الجامع.

في جامع المنصوري يمكننا القول بوجود محور لتوازن الكتلة مار من محراب قاعة الصلاة. كما أنَ أبعاد الفراغات المكونة للجامع تتنوع بين مستطيل ومربع. لم نلحظ استخدام أي موديول في بناء أجزاء الجامع المختلفة، والمسافات بين الأعمدة متقاربة.

بالمقارنة بالجامع الكبير في كل من حلب ودمشق نجد أنَ الجامع الكبير في جبلة صغير نسبياً، ربما بسبب صغر حجم المدينة، وقلة عدد سكانها مقارنةً بسكان مدينتي حلب ودمشق على امتداد الحقبات الإسلامية المتلاحقة.

الجدران: بنيت الجدران بحجارة منحوتةٍ ذات حجمٍ متوسط، وتتناقص أبعادها مع ارتفاع الجدار.

الأعمدة: استخدم البناؤون، بشكلٍ عام، في إنشاء جامع المنصوري أعمدةً مربعة أو مستطيلةً، غالبيتها ذات محيطٍ منتظم.

أشكال التغطية: يمتلك جامع المنصوري قبتين، إحداهما صغيرة وتغطي الحيز الجنوبي للمدخل الرئيس، وتختفي ضمن سماكة السقف، وهي غير مرئية للخارج. القبة الثانية: هي قبة قاعة الصلاة المرتفعة على رقبة مستطيلة الشكل.

تنوعت تغطية الأحياز بين سقفٍ مستوٍ وعقد متصالبٍ مستندٍ إلى أربع دعاماتٍ في زواياه الأربعة.

كما يجب تأكيد استخدام عنصر حديثٍ في تغطية ساحة الجامع التي كانت حتى ثمانينيات القرن العشرين غير مغطاة. وسقفت بسقفٍ معدني مؤلف من صفائح من الزنك منضدة فوق بعضها، تأخذ مجتمعةً شكل هرم.

الأقـواس: في جامع المنصوري استخدمت الأقواس المدببة– المنكسرة.

النوافذ: تتوزع على جدران قاعة الصلاة الخارجية ست نوافذ مستطيلة متشابهة تماماً.

الزخرفة: التجريد والتقشف في العناصر الزخرفية هو ما يميز هذا الجامع، باستثناء بعض الإضافات تحت قبة قاعة الصلاة، حيث لا توجد زخرفة على كامل جدران وسقوف الجامع باستثناء الكتابات الحجرية.

سادساً: الدور التثقيفي للجامع:

يمكننا الإشارة هنا إلى أنَ جامع المنصوري قد خسر كثير من أهميته على الأصعدة جميعها مع نهاية الحقبة المملوكية لصالح تطور جامع السلطان إبراهيم من زاوية إلى جامع متكامل. لأنّ جامع المنصوري هو الجامع الكبير الوحيد في المدينة خلال مدة زمنية طويلة، فقد كان يؤدي دور مدرسةٍ دينيةٍ يُدرّس فيها القرآن والعلوم الشرعية والفقهية والحديث النبوي الشريف... يتمثل الدليل المعماري على هذا الأمر في الفراغات التي تشغل القسم الشمالي– الشرقي والشمالي–الغربي للجامع، واعتماداً على شكل هذه الفراغات وحجمها، فمن المفترض أن تكون قد استخدمت كغرف لتلاميذ الحلقات الدينية المقامة في الجامع الكبير، أو لأساتذتهم. مّما يعني أنَ جامع المنصوري قد أدّى دور مدرسة دينية في المراحل الإسلامية المتلاحقة. وقد احتفظ جامع المنصوري حتى يومنا هذا بدوره كمدرسة دينية حيث يدرس فيه يومياً القرآن الكريم للأطفال الذكور والإناث على حدٍ سواء.

References

J. Sauvaget, « Décrets mamlouks», BEO, XII, nº 60.